العمران في المشرق العربي في القرن السادس الهجري
(قراءة في رحلة ابن جبير)

دكتورة / نوال محمد عبد الله

الرحلة والرحالة :

أما الرحلة فهي احدى رحلات الحج ، وتحصيل العلم ، التي قام بها الكثير من العلماء والكتاب من المغرب الى المشرق العربي ، وقد رأى صاحبها ـ ابو الحسين محمد بن احمد الكناني والمعروف باحمد بن جبير ـ تدوينها في شكل مذكرات لتكون دليلا لقومه في رحلتهم ، متبعا في ذلك طريق ابو بكر بن محمد العربي الذي دون رحلته في القرن الخامس الهجري . وقد دون احمد بن جبير الجزء الاول منها والذي يختص ببلاد الاندلس باختصار شديد ، ثم بدأ بتفصيل الكلام من بعد ركوبه البحر من سبته ، حتى عودته مرة ثانية الى بلده .

وتعتبر هذه الرحلة التي قد تاخذ اسم " تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار " من افضل نماذج رحلات المغاربة ، لاصالتها ، وصدقها ، وبساطة اسلوبها ، ولما كانت على شكل مذكرات يومية فان المعلومات التي تاتي بها تتبع خط الرحلة ، وأهم ما يميزها ـ رغم أنها من ادب الرحلات ـ قلة الانطباعات الذاتية فيها اذا قورنت برحلات اخرى ، ثم الملاحظة الدقيقة لكثير من المظاهر ، والمقارنة بين ما يراه ويجد له نظيرا في موطنه ، وهو الى جانب اهتمامه بالمشاهد والمزارات ومجالس العلماء ، ووصفه الفصل للحرم المكي والمسجد النبوي ، يبدي اهتماما ساثلا بالعمران في مختلف اشكاله في هذه المنطقة فيتحدث عن المدن ، والقرى ، ومراكز الاستيطان الصغيرة على طول طرق الرحلة . وتحظى المدن من بين كل هذه المظاهر بقدر كبير من اهتمامه ولعل نشأته الحضرية من ناحية ، وتنوع وتعدد ظاهرات المدن من ناحية اخرى كانا سببا في هذه الحظوة ، وجدير بالذكر أن الناس لا تلقى مثل هذا الاهتمام عند احمد بن جبير ، وتظهر الانطباعات الذاتية في الاجزاء المتاثرة التي يأتي ذكرهم فيها .

واذا قيل ان القرن الرابع الهجري يمثل قمة ازدهار الحضارة العربية ، فان العمران كان لايزال في تطور حتى القرن السادس الهجري ، مما دعا الى ظهور مزيد من الكلمات القديمة بمدلولات جديدة لتلائم اشكالا من العمران لم تكن لها تسميات من قبل ، كما وجدت أنواع من العمارة لتلبية حاجات الناس .

وتلقى رحلة ابن جبير ضوءا على العمران فى المشرق العربى فى عدة اتجاهات ،

١ــ تعدد الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان فى القرن السادس الهجرى ، وتغير مدلولات بعض الكلمات التى كانت مستخدمة من قبل .

٢ــ مكونات وحياة ووضع المدن المختلفة فى اقطار المشرق العربى .

٣ــ الريف والقرى .

٤ــ طرق الحج والتجارة .

(١) تعدد مدلولات العمران واتساع مفهوم المدينة

بمقارنة الكلمات الدالة على الاستيطان والتى استخدمها ابن جبير فى مذكراته بتلك التى وردت فى القرن الرابع الهجرى عند الجغرافيين من امثال المقدسى وابن حوقل نجد غنى فى هذه الكلمات ، فبينما كانت كلمتا " القرية " و " المدينة " هما المستخدمتين حتى القرن الرابع الهجرى للدلالة على مستويات الاستقرار نجد ابن جبير ــ فى القرن السادس الهجرى ــ يستخدم كلمات اخرى الى جانب هاتين الكلمتين مثل البلدة والمحلة . فالبلدة اصبحت تعنى ــ الى جانب معناها اللغوى المعروف ــ مرتبة من الاستيطان تقع بين القرية والمدينة . وهى المرتبة التى اختار كل من المقدسى وابن حوقل فى تسميتها ، فيقول عنها المقدسى " غير انه لما لم يكن لها قوة المدن فى الاثمن ولا ضعف القرى فى الخمول وتردد امرها بين الرتبتين وجب ان تستظهر بذكرها ونبين مواضعها " [1] ، وفى مثل ذلك يقول ابن حوقل : " مدينة صغيرة كالقرية تعرف بمسجد ابراهيم " [2] ، على حين نجد ابن جبير يسمى هذه المرتبة فيقول " بلدة بزاعة تصغر عن المدن وتكبر عن القرى " [3] ، وقد شاع هذا الاستخدام بعد ذلك ، فنجد كلا من ياقوت الحموى والقزوينى فى القرنين التاليين يستخدمان كلمتى بلدة وبليدة لمراكز الاستيطان غير الزراعية مثل محطات خدمة القوافل .

---

١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٠٦ ، ص ١٧٦ .

٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٥٨ .

٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار) القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ (سنة ١٩٥٥ م) ص ٢٣٧ .

كذلك ظهر عند ابن جبير استخدام كلمة المحلة بمعنى القسم من المدينة حيث يقول عن بغداد " وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة " (١) وقد جاءت هذه الكلمة بدل كلمة الخطة التي كان يعنى بها القسم من المدينة حسب نزول القبائل ، واذا رجعنا الى كلمة المحلة وجدنا انها تعني لغويا " مائة بيت " (٢) مما يدل على ان اقسام المدينة لم يعد ينظر لها نظرة قبلية موانما هي تقسم على اساس مجموعات من البيوت لا على اساس نزول القبائل ، مما يشير الى اختفاء النزعة القبلية في المدن ، واندماج العرب مع السكان الاصليين ، وان كان هذا الاستخدام لايعني اختفاء كلمة الخطة نفسها فقد استمر استخدامها لفترة طويلة بعد ذلك .

أما عن اتساع مفهوم بعض كلمات العمران فيظهر في مدلول كلمة " المدينة " فقد كادت تختفي كلمتا المصر والقصبة ، وتضاءل استخدامهما ، فكلمة مصر جاءت علما على الفسطاط وحدها حيث يقول " ثم منها (اى القاهرة) الى مصر المحروسة ... وكان نزولنا في مصر بفندق ابى التناء في زقاق القناديل بقرية من جامع عمرو بن العاص " (٣) ، أما بقية الامصار والقصبات فيذكرها بكلمة مدينة مثل مدينة دمشق ، ومدينة مكة ، واختفت كلمة القصبة من كتابته ، ويبدو ان ماذكره المقدسي من استخدام العامة لكلمة المدينة لجميع درجات المدن دون تمييز قد اصبح لغة العصر في القرن السادس الهجري .

هناك تغير اخر طرأ على مدلول كلمة المدينة فهي لم تعد تعني السكن الذي يحتوي على منبر ، وانما كل سكن يقوم بنفس الدور الذي تقوم به المدينة في دار الاسلام حتى وان كان خارجها ، فقد اطلق اللفظ على كل من بلارمة وعكا وصور وصيدا وكلها في يد المسيحيين ، فكأن الكلمة اصبحت ترتبط بمدى توفر خدمات معينة ، ويبدو ادراك ابن جبير لهذا المدلول من اضفائه صفة المدينة على عيذاب وصفة القرية على جدة مع ان كلا منهما ميناء على ساحل بحر واحد وتتشابهان في المظهر العام ، ولكن اختلاف الدور الذي تقوم به كل من عيذاب وجدة

---

(١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢) الفيروز ابادي : قاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧١هـ (١٩٥٢) ، ص ٣٧١ .

(٣) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ١٢ .

هو الذي جعله يحس بهذا الفارق .

٢) مكونات مدن الشرق العربي في القرن السادس الهجري

من خلال عرض ابن جبير للمدن التي توقف أو مر بها في اقطار الشرق العربي - مصر والحجاز والعراق والشام - نتبين ان المؤسسات التي تمثل ركائز المدن الاسلامية والعربية بالذات ظلت موجودة مع ظهور مجموعة جديدة اختصت بها مدن الشرق العربي بالذات . واول هذه المكونات هو السور ، وهو معلم قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم ، ولكنه في القرن السادس الهجري اصبح جزءا هاما في كثير من مدن الشرق العربي لتعرض العديد منها للهجمات سواء من الصليبيين أو من الامراء المتناحرين وكانت أسوار هذه المدن المعرضة للهجمات منيعة ضخمة من الحجارة ذات ابراج ولها بوابات ضخمة من الحديد كما في حلب وحماة وحمص وعكا ، أما في بقية المدن فقد تهدم بعضها واختفى البعض الاخر وهي في غالبيتها من الطين كما في اسوار معظم مدن مصر والعراق ، وعلى كل حال فان الاسوار في هذا القرن لم تعد تلعب دور الفصل بين المدينة والريف فقد زحفت غالبية المدن خارج اسوارها وتجاوزتها بحيث اصبح للمدينة الرئيس أو الرئيسين ، كما في الموصل وبغداد ودمشق وقوص وغيرها ، وكانت هذه الارباض تحتوي على المساجد والجوامع والخانات والاسواق والمدارس والرباطات والقصور وغيرها .

اما الجامع فقد ظل من مكونات المدينة العربية ولكنه لم يعد جامعا وحيدا تتميز به المدينة وانما زاد عدد الجوامع مع اتساع المدن وزيادة عدد السكان ، فقامت في اجزاء المدينة البعيدة وحتى خارجها ، وجدير بالذكر أن الجوامع في هذا القرن لم تعد قاصرة على المدن فظهرت في القرى الهامة مثل المنصورة (طنطا) في مصر وصرصر في العراق والتيرب والعزة قرب دمشق ، كذلك توزعت المساجد في ارجاء المدينة ، وزادت اعدادها حتى ان ابن جبير قد أوصلها الى اعداد كبيرة كما في الاسكندرية وبغداد ، وقد اصبحت المدارس من معالم مدن الشرق العربي في هذا القرن ويمكن ملاحظة ذلك من مقارنة وصف المدن عند المقدسي في القرن الرابع الهجري وعند ابن جبير في القرن السادس الهجري وقد ارتبط بعض هذه المدارس بالجوامع والمساجد وقام البعض الاخر منفردا .

ارتبطت السوق كذلك بالجامع الرئيسي (شكل ١) وقد اتخذت كما يتضح

شكل ١ - ٢ . المكونات الوساسية لمدن المشرق العربي كما تظهر في حلب القديمة عند :
P. Beaumont (1976), The Middle East.

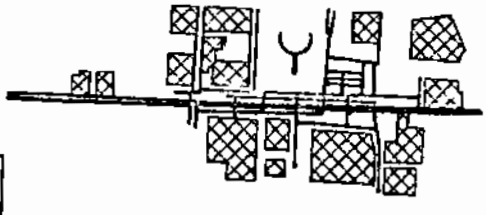

شكل ١ - ٣ . تفصيل السوق المركزي عند
K., Deffmann (1969), Damascus.

من وصف ابن جبير لها في عديد من المدن اشكالا متعددة فتحيط بد هاليز الجامع وتمتد الى ما بعده ها كما في سوق دمشق حيث يقول " ود هليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه " ... وعن د هليز شمالي يقول " ... وفيه حوانيت للخرزيين " [1]، بل ان السوق قد تصل الى حرم الجامع كما في سوق المسجد الحرام حيث يقول " وفي ايام الموسم كلها عاد المسجد الحرام - نزهة الله وشرفه - سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى العنبر ومن البر الى الدر الى غير ذلك من الطعم " وقد تتسع مساحة هذه الاسواق وتمتد كما في سوق دمشق التي كانت تمتد من باب شرقي حتى باب الجابية في الغرب ، وهي تتميز بتخصص كل جزء منها بحرفة من الحرف او تجارة معينة فسوق حلب مثلا " .... متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية " ، كذلك تميزت معظم الاسواق بتسقيفها بالخشب ، كما كانت القيساريات أحد معالمها البارزة وكان بعضها يرتفع عدة طبقات تحتل الحوانيت الطابق الارضي والمخازن واماكن المبيت الادوار الاخرى .

كذلك اقترب من الجامع بعض الفنادق ، كما لاحظنا في السماط ومثلها في جامع دمشق فيقول عن احد الد هاليز فيه " ... وعليها شوارع اخر مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الد هليز " [2] هذا وان ظهرت مجموعة اخرى منها قرب البوابات الهامة وخارجها مرتبطة بمحطات المسافرين ، كذلك حفلت مدن المشرق العربي بالحمامات وكانت تتنافس المساجد في كثرة عددها ، ومن الملاحظات الطريفة ان حمامات بغداد كانت تدهن بالقار الذي يتوفر فريا منها بصورة طبيعية في بعض العيون المنبثقة على سطح الارض ، كذلك من ابرز مكونات مدن الشرق العربي المارستانات والزوايا والرباطات والخوانق .

اما القلاع فرغم تواتر ذكرها الا انها كانت اكثر وجودا في الشام و شمال العراق ، أما في مصر فلم يكن عماد الا قلعة صلاح الدين في القاهرة ، وقد بناها متأثرا بالقلاع في موطنه الاول ، كذلك لا يأتي ذكرها في الجزيرة العربية ، وانما هناك حصون متناثرة متعددة في مواضع مختلفة من طرق الحج ، وجدير بالذكر

---

١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ، ص ٢٥٧ .

٢) ابن جبير المرجع السابق ص ٢٤٠ ، ص ١٣ .

انه بينما كانت الحصون للدفاع في المناطق الريفية في الشام ، فان دورها في المناطق التي تحت يد الصليبيين كان مختلفا عن دور الحصون العربية ومماثلا لدور الحصون الاوروبية في العصور الوسطى ، أي للهيمنة والسيطرة ، فكان كل حصن يسيطر على مجموعة من القرى تقع في دائرة نفوذه .

أما الدور التي يمكنها الاعالي فيفهم من كلام ابن جبير انها كانت من الآجر في العراق ، ومن الطين والقصب في مدن الشام ومصر ، وكانت هذه الدور ترتفع الى عدة طوابق في دمشق والاسكندرية والفسطاط . وهو ما يؤيد وصف كل من ابن حوقل في القرن الرابع الهجري وناصر خسرو في القرن الخامس الهجري للفسطاط .(١)

٣) حياة المدينة

لايهدي ابن جبير اهتماما كبيرا بسكان المدن ولا يذكرهم الا في مواضع متفرقة ، واكثر من يهتم بذكرهم من سكان المدن بخاصة جماعات الغارة ، ونخلص من كلامه ان مدن المشرق العربي كانت تموج باعداد مختلفة من البشر وخاصة مراكز العلم المشهورة او الواقعة منها على طرق الانتقال البرية والبحرية ، فمثلا يصف قوص " كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج ، والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة "(٢) ومن ثم فقد انتشرت الفنادق والخانات في هذه المدن ، كما كانت هناك جماعات اخرى تقيم لسنوات طويلة او اقامة دائمة في بعض هذه المدن لطلب العلم والتعبد ولهؤلاء كثرت اماكن الايواء الجانبية في المدارس والمساجد والزوايا والرباطات ، بل اقيمت لهم الحمامات والمارستانات كما كان الحال في الاسكندرية .

وكانت مدن المشرق تقدم الخدمات التعليمية والصحية لسكانها من خلال مؤسساتها التي سبق الاشارة اليها كالمساجد والمدارس والمارستانات والحمامات وكانت توقف عليها الاوقاف من اراض او عقارات ، ونستشف من حديث ابن جبير ان المارستانات لم تكن معروفة في المغرب حتى ذلك الحين حيث يقول :

---

١) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ناصر خسرو : سفرنامة (نقله للعربية يحيى الخشاب) ، بيروت ، ص ٩٠ ، ١٠١ .

٢) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٣٧ .

" وسألنا احد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات " (١)

كذلك تعرض ابن جبير في حديثه عن كل مدينة لطريقة حصولها على مياه الشرب وهنا نتبين أن حتمية وجود المركز السكني قريبا من الماء لم تتحقق حتى في هذه العصور، وفي تلك المناطق الجافة وشبه الجافة ، فرغم أن الكثير من المدن كان يقع قريبا من مجاري مائية او عيون ماء ، فقد كانت هناك مدن أخرى تحصل على المياه من الابار المحفورة مثل مكة ، والبعض الاخر يفقر خزانات في الصخر لتتلقى مياه الامطار كما في جدة ، كما كانت هناك قلة من المدن تحدث فانون ارتباط المدينة بمورد الماء فكانت تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال في حمص وعيذاب وحران (شكل ٢) .

٤) احوال مدن الشرق العربي في القرن السادس الهجري

نخلص من مذكرات ابن جبير ان مدن الشرق العربي قد تفاوتت احوالها واوضاعها تبعا للاقاليم الواقعة فيها ، فبالنسبة لمصر تظهر الاسكندرية في القرن السادس الهجري مدينة ذات حركة ونشاط ، وتهدو وقد استعادت جزءا من حيويتها القديمة التي فقدتها بعد الفتح العربي ، فكانت اسواقها مفتعشة لوفود السفن اليها من البحر ، ولعل ابلغ عبارة وصفها بها ابن جبير تبين نشاطها كميناء تولد " .. ومن الغريب ايضا في احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم " (٢) وهذا هو حال كثير من المرافئ حتى الوقت الحاضر ، حيث ينشط السكان وتفتح المتاجر بمجرد وصول السفن ، كما كانت مقصدا للمغاربة من البر ، وقد نوه ابن جبير بحماماتها الكثيرة ووجود مارستان بها ويؤيده في هذا القول الوزير لايوبي المعاصر له الاسعد بن مماتي حيث يقول " الثغور المحروسة اسكندرية دمياط تنيس رشيد عيذاب والاسكندرية اعظمها قدرا وافخمها امرا واكثرها ارتفاعا " (٣) ، اما الفسطاط — التي كانت قد سلبت الاسكندرية مركزها في القرن الاول الهجري — فقد كانت تعاني من

---

١) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٢٤٦ .

٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٢ .

٣) الاسعد بن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٦ .

منافسة القاهرة من ناحية ومن اثار الخراب الذى احدثه بها الحريق فى سنة ٦٤٥ هـ من ناحية اخرى ، ورغم ان التعمير كان يجرى بها الا ان ابن جبير يقول عنها " وهى مدينة كبيرة والاثار الندية حولها وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف " ، ورغم ان عدد مدن مصر قد ارتفع منذ القرن الرابع الهجرى فان الدلتا قد خلت من المدن الهامة وانتشرت القرى وسط اراضيها الزراعية بعد ان انحدرت مدنها القديمة ، فى حين انتعشت مدن الصعيد مثل أسيوط واخميم وقنا وقفط وقوص لانتقال طريق التجارة والحج الى الجنوب ، وقد تبع ذلك نمو ميناء عيذاب مرتبطا بهذا النشاط المؤقت وكان لهذا النمو المصطنع فى منطقة تفتقد الظهير الملائم أثره فى اختفاء هذا الميناء فيما بعد .

أما بالنسبة للحجاز ، فيبدو من وصف احمد بن جبير ان جدة كانت تلاقى فترة اتضاع بعد نشاطها فى القرن الخامس الهجرى ، فبينما يصفها ناصر خسرو بأنها " مدينة كبيرة لها سور حصين " (١) نجد ابن جبير يقول عنها انها قرية بها اثار سور قديم ، ويبدو ان فترة تدهورها لم تستمر حيث يبدو نشاطها مرة أخرى فى وصف التجيبى فى القرن السابع الهجرى . " وبها الآن اقلاع وحط يسافر منها لليمن وسواكن وعيذاب والقلزم وغير ذلك " (٢) . اما مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد كانت عناية الخلفاء والامراء بهما ظاهرة من حيث تحويل السيول وتجديد الاسوار وتوفير المياه والعناية بالمسجد الحرام ومسجد الرسول وغيرهما من المساجد كما يذكر ابن جبير فى مناقب جمال الدين ، ولكن كان من الواضح أن المدينتين قد اصبحتا تعتمدان على التجارة خلال موسم الحج بالدرجة الاولى .

اما مدن العراق فيبدو انحدارها ولحاق الخراب باجزاء منها ويظهر ذلك فى كلام ابن جبير عن الكوفة وبغداد وسر من رأى ومنبج وقنسرين ورأس العين

---

١) ناصر خسرو : سفرنامة (ترجمة يحيى الخشاب) ، بيروت ، (بدون سنة طبع) ، ص ١٢٠ .

٢) القاسم بن يوسف التجيبى : مستفاد الرحلة والاغتراب (تحقيق عن الحبيب بنصور) تونس ، سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ٢١٦ .

ودنيصر وحران وغيرها ، ولا شك ان أفول الدولة العباسية واستيلاء الامراء على مقدراتها حتى أن ابن جبير يصفهم بانهم " سلاطين شتى كملوك الطوائف الاندلس" (١) ثم فساد الامن في البلاد حيث كانت قبيلة خفاجة تعيث في المنطقة مابين الكوفة وشمال بغداد فسادا ، بينما يسيطر الاكراد على الطرق مابين الموصل ودنيصر ، قد أدى الى تدهور المدن وانحدار بعضها الى مستوى القرى فيما بعد (شكل ٢) .

اما في الشام فان دمشق تبدو من وصف ابن جبير مركزا زراعيا وتجاريا وصناعيا هاما ، وكان لموقعها على طريق التجارة بين الشرق وموانى البحر المتوسط اثر في استمرار انتعاشها ، اما حلب وحماة وحمص فقد كان درسها من حصون الصليبيين سببا في متانتها وحصانتها ، وقد برزت عكا في الشواطئ التجارى فقد كان يتجه اليها التجار الوافدين من اليمن الى الشام وفي ذلك يقول ابن جبير انه سافر في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة " (٢) كما يتضح من اتجاعه الى ميناء صور منافسة عكا الميناء العكا ، ومن ذلك يتضح استخدام المسلمين لهذين الميناءين رغم سيطرة الصليبيين عليهما .

٥) الريف في المشرق العربي

عدت القرى بما كانت من ميل تلحق ادباريا بالمدن ، فيقال قرى بغداد ، وقرى الموصل ، وقرى حلب ، وكان العمران الريفي مزدهرا في كل من مصر والعراق والشام فاستغلت الارض الزراعية وتوالت القرى بناء بعضها . وحديث ابن جبير عن القرى والزراعة ليس في متى حديثه عن المدن فما ذكره ليس بالكثير ، ففي مصر ينوه باتساع الاراضي المزروعة وتواصلها ، كما يتحدث بايجاز عن بعض المحاصيل كالقمح والشعير ، وفي العراق يتحدث عن استغلال الضفاف الخرابة ، وفي الحجاز يتحدث عن اشتغال العمارة بالزراعة في منطقة الطائف ولا يفوته أن ينوه بدورهم في ازدهار [illegible] ولعل أهم مايذكره عن الزراعة هو حديثه عن النظام القائم

---

١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٠ .

٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢٢٨

وإذا رجعنا الى الوراء فالمعيار الحجمي ٣٠ ألف يقفز عدد السكان الى مايقرب من نسبة السكان غير العاملين بالزراعة والرعي (٥٣ر٨٪) نجد أن مستوى حجم ٢٨ ألف نسمة يعطينا نسبة سكان ٥٢ر٩٥٪ من جملة السكان . وهذا هو الحد الحجمي الادنى في تعريف مدن المملكة العربية السعودية من الناحية الوظيفية .

ولكن في الحقيقة انه ليست نسبة السكان غير العاملين بالزراعة بالفعل سكان مدن ، بل يدخل في هذه النسبة السكان غير العاملين بالزراعة والرعي والمستقرين في المناطق الريفية أقل من ٢٨ ألف نسمة . وبالتالي يمكن أن نقرر أن نسبة سكان المدن من جملة سكان المملكة من الناحية الوظيفية أقل من ٥٣ر٨٪ من جملة السكان . وبالتالي سيرتفع الحد الحجمي السابق الى أكثر من ٣٠ ألف نسمة أو أكثر لكي يبدأ عنده المركز الحضري

يجب ألا نغفل أن المناطق الحضرية السعودية تتصف على نسب غير محدودة من السكان الرحل وكما سلف أن ذكرنا (تبلغ نسبة السكان الرحل في مدينة بيشة وتعز مثلا على الترتيب ٢٩ر٥ ـ ٣٤ر٧ ٪ من جملة السكان في المدينتين) وهذا يجعلنا نرى نسبة السكان العاملين بالزراعة والرعي في الدولة عامة ، وبالتالي فان نسبة السكان غير العاملين بحرف زراعية ورعوية أقل بكثير من النسبة المذكورة (٥٣ر٨٪ من جملة السكان) . وبالتالي يجب رفع الحد الادنى للحجم الذي يبدأ عنده المدينة أكثر من ٣٠ ألف نسمة السابقة ذكره ، والرقم ٤٠ ألف نسمة رقم ملائم لذلك ، فهو يعطينا نسبة سكان حضر ٤٢ر٠٨٪ من جملة السكان .

الخلاصة

نخلص من الدراسة السابقة لتعريف المدينة السعودية النتائج التالية :

أولا : المدينة السعودية حسب المعايير العلمية السابقة (الادارى ـ الحجمى ـ الوظيفى) تبدأ من الحد الاحصائى الحجمى ٤٠ ألف نسمة ، وعلى هذا الاساس تمثل نسبة سكان المدن فى المملكة العربية السعودية حسب هذا الحد (التى يعتبر خدمة التاريخ الخاطئة) ٨ر٤٠٪ من جملة المملكة العربية السعودية ، وهاتل هذا الرقم ما توصلت اليه دراسات سكانية سابقة على أساس عينات فى انحاء المملكة [1] وبلغت نسبة سكان الحضر فى هذه الدراسات ٠ر٤٢ ٪ من جملة السكان فى المملكة العربية السعودية ٠

ثانيا : وطى هذا الأساس الحجمى (٤٠ ألف نسمة) يتكشف لنا أن هناك عدد من المدن التى تمثل عواصم للمناطق (المحافظات) لا تبلغ الأربعين ألف نسمة مثل جيزان (٣٢٨١٢ نسمة) وانها عاصمة منطقة عسير (٣٠١٥٠ نسمة) عرعر عاصمة الحدود الشمالية (٣٣٢٥١ نسمة) سكاكا عاصمة منطقة الجوف (٢٠٦٧٦ نسمة) القريات عاصمة منطقة القريات (١٤٠٨٧٥ نسمة) بالتالى فانها لا تندرج مدينة حسب الاساس الوظيفى السابق رغم انها مدن أساسية حسب التعريف الادارى ٠

ثالثا : تؤكد الدراسة التحليلية السابقة بوضوح أن المراكز العمرانية التى تزيد على ٤٠ ألف نسمة تعتبر مدن حسب التعريف الادارى والحجمى ومؤشرات التعريف الوظيفى هى أحد عشرون مدينة ، كما فى الجدول التالى [2]

---

(١) مؤسسة دوكسيادس العالمية ، المنطقة الشمالية ـ مختصر عمرانى اقليمى ومراحل تحسين الاوضاع الراهنة ، المجلد ١ ـ رقم التقرير ١ ، ١٣٧٣ ، ص ٢٠٧ ٠

(٢) تجميع ـ تحليل ـ تصنيف الباحث ـ عن النتائج الاولية للتعداد ١٣٧٤ ٠

المدينة	عدد السكان	الترتيب	التصنيف الادارى	مسمى مدينة(١)
١ الرياض	٦٦٦,٨٤٠	١	عاصمة المنطقة	مدينة
٢ جدة	٥٦١,١٠٤	٢	مركز ادارى	مدينة
٣ مكة	٣٦٦,٨٠١	٣	عاصمة منطقة	مدينة
٤ الطائف	٢٠٤,٨٥٧	٤	مركز ادارى	مدينة
٥ المدينة المنورة	١٩٨,١٨٦	٥	عاصمة منطقة	مدينة
٦ الدمام	١٢٧,٨٤٤	٦	عاصمة منطقة	مدينة
٧ الهفوف	١٠١,٢٧١	٧	مركز ادارى	مدينة
٨ القطيف	٨٨,٦٤٨	٨	عاصمة منطقة	مدينة
٩ تبوك	٧٤,٨٢٥	٩	عاصمة منطقة	مدينة
١٠ بريدة	٦٩,٩٤٠	١٠	عاصمة منطقة	مدينة
١١ عنيزة	٦٦,٣٦١	١١	امارة تابعة	—
١٢ ضباء	٦١,٢٨٥	١٢	امارة تابعة	—
١٣ الدوادمي	٥٤,٣٢٥	١٣	امارة تابعة	قرية (٢)
١٤ خميس مشيط	٤٩,٥٨١	١٤	مركز امارة	مدينة
١٥ الخبر	٤٨,٨١٧	١٥	مركز امارة	مدينة
١٦ نجران	٤٧,٥٠١	١٦	عاصمة منطقة	مدينة
١٧ الخرج	٤٢,٣٤٧	١٧	مركز امارة	مدينة
١٨ بيشة	٤١,٥٤٠	١٨	مركز امارة	مدينة
١٩ حائل	٤٠,٥٠٢	١٩	عاصمة منطقة	مدينة
٢٠ الداودي	٣٩,٨٤٢	٢٠	مركز امارة	—
٢١ تربة	٣٨,١٣٨	٢١	مركز امارة	—

(١) تسمى مدينة كما ورد في النتائج الاولية للتعداد ١٩٧٤.

(٢) امارة تابعة (قرية) ، ومن غرائب التعداد أنها اجبلها من المدن التي تزيد على ٣٠ ألف نسمة .

* امارات ليست بها مركز لادارة ، تتبع مراكز في مصر

** مركز امارة الدوادمي مركز في وادي نفي الرئيسي ألف نسمة .

رابعا : بالاضافة الى المدن السابقة التى تحددها المقاييس السابقة ، توجد مجموعة من المدن تحمل مسميات مدينة فى النتائج الاولية للتعداد ١٩٧٤ ، ولا شك أن اطلاق اسم مدينة لابد لها من الشكل والحياة الحضرية التى دفع السكان والحكومة أن تميزها بمسمى مدينة رغم أنها لم تبلغ الأربعين ألف نسمة وهى :

٢٢	أملج	٢٣,٧٢٨ نسمة	مركز امارة	مسمى مدينة
٢٣	الوجه	١٤,٩٧٠ "	"	"
٢٤	تيماء	٩,٢١٩	"	"
٢٥	ضباء	٧,٢٩١	"	"

خامسا : توجد مجموعة من مدن عواصم المناطق التى لم تبلغ الاربعين ألف نسمة ، ولكنها تعتبر مدن حسب التعريف الادارى ، فهى ليست بناد ولمراكز بل عواصم مناطق وبعضها تحمل مسميات قرية بالرغم من أنها العاصمة عدا عرعر فهى مركز ادارة الحدود الشمالية لا تحمل مسمى مدينة .

٢٦	عرعر	٣٣,٣٥١ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٧	الباحة	٣٢,١٠٠ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٨	ابها	٣٠,١٠٥ نسمة	(مسمى مدينة)
٢٩	سكاكا	٢٠,٩٧٦ نسمة	(مسمى مدينة)
٣٠	القريات	١٤,٥٨١ نسمة	(مسمى مدينة)

سادسا : يمكن أن نضيف الى قائمة المدن السعودية مدينة ينبع ، رغم انها تبلغ ١٧,٤٠٢ نسمة أى دون نصف الحد الادنى لتعريف المدينة الحجمى ، ولكنها مركز لامارة وبالتالى تتميز بصفة ادارية ، وتميزها أنها احد موانى المملكة ، فضلا على انه شرع فى تحويلها مركز صناعى ثقيل فى السنوات الاخيرة .

سابعا : يوصى الباحث بعدة مقترحات ، أهمها :

(١) توضيح وتسلسل الرتب الادارية للمناطق المختلفة من منطقة الى امارة الى امارة تابعة ، اذ يعاب على النظام الحالى أن كثير من الامارات (المراكز) لا توجد لها مراكز ادارة (بنادر) .

(٢) يجب اطلاق تسمية مدينة على مراكز العمران المدنية الحقيقية ، اذ أحيانا يطلق على بعض مراكز العمران تسمية مدن رغم ضآلة حجمها السكانى مثل تيماء (٩ آلاف نسمة) وضباء (١٠ آلاف نسمة) الوجه (١٤ ألف نسمة) .. الخ ، فضلا على انها مراكز الامارات .

(٣) وفى نفس الوقت لا يطلق تسمية مدينة على مدن تمثل عواصم لمناطق كبيرة مثل عرعر عاصمة منطقة الحدود الشمالية ، بالرغم من أنها أكبر حجما من المدن السابقة .

(٤) وضع أسس ومعايير واضحة لتحديد المدن فى المملكة وطبقاتها حسب التعريفات المختلفة كالاساس الادارى والاساس الحجمى والاساس الوظيفى ... الخ .

العمران فى المشرق العربى فى القرن السادس الهجرى
(قراءة فى رحلة ابن جبيـــــر)

دكتورة / شوال محمد عبد الله

الرحلة والرحالة :

أما الرحلة فهى احدى رحلات الحج ، وتحصيل العلم ، التى قام بها الكثير من العلماء والكتاب من المغرب الى المشرق العربى ، وقد رأى صاحبهـــا - ابو الحسين محمد بن احمد الكنانى والمعروف باحمد بن جبير - تدوينها فى شكل مذكرات لتكون دليلا لقومه فى رحلتهم ، متبعا فى ذلك طريق ابو بكر بن محمـــد العربى الذى دون رحلته فى القرن الخامس الهجرى . وقد دون احمد بن جبيـــر الجزء الاول منها والذى يختص ببلاد الاندلس باختصار شديد ، ثم بدأ يفصـــل الكلام من بعد ركوبه البحر من سبته ، حتى عودته مرة ثانية الى بلده .

وتعتبر هذه الرحلة التى قد تأخذ اسم " تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار " من افضل نماذج رحلات الغابرة ، لاصالتها ، وصدقها ، وبساطة اسلوبهـــا ، ولما كانت على شكل مذكرات يومية فان المعلومات التى تأتى بها تتبع خط الرحلـــة ، وأهم ما يميزها هو رغم أنها من ادب الرحلات - قلة الانطباعات الذاتية فيهـــا اذا قورنت برحلات اخرى ، ثم الملاحظة الدقيقة لكثير من المظاهر ، والمقارنة بيـــن ما يراه ويجد له نظيرا فى موطنه ، وهو الى جانب اهتمامه بالمشاهد والمـــزارات ومجالس العلماء ، ووصفه الفصل للحرم المكى والمسجد النبوى ، يبدى اهتمامـــا ملائما بالعمران فى مختلف اشكاله فى هذه المنطقة فيتحدث عن المدن ، والقرى ، ومراكز الاستيطان الصغيرة على طول طرق الرحلة . وتحظى المدن من بين كـــل هذه المظاهر بقدر كبير من اهتمامه ولعل نشأته الحضرية من ناحية ، وتنوع وتعقـــد ظاهرات المدن من ناحية اخرى كانا سببا فى هذه الحظوة ، وجدير بالذكـــر أن الناس لا تلقى مثل هذا الاهتمام عند احمد بن جبير ، وتظهر الانطباعـــات الذاتية فى الاجزاء المتأثرة التى يأتى ذكرهم فيها .

واذا قيل ان القرن الرابع الهجرى يمثل قمة ازدهار الحضارة العربية ، فـــان العمران كان لايزال فى تطور حتى القرن السادس الهجرى ، مما ادى الى ظهـــور مزيد من الكلمات القديمة بمدلولات جديدة لتلائم اشكالا من العمران لم تكن لهـــا تسميات من قبل ، كما وجدت أنواع من العمارة لتلبية حاجات الناس .

وتلقى رحلة ابن جبير ضوءا على العمران في المشرق العربي في عدة اتجاهات :

١ـ تعدد الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان في القرن السادس الهجري ، وتغير مدلولات بعض الكلمات التي كانت مستخدمة من قبل .

٢ـ مكونات وحياة ووضع المدن المختلفة في اقطار المشرق العربي .

٣ـ الريف والقرى .

٤ـ طرق الحج والتجارة .

١) تعدد مدلولات العمران واتساع مفهوم المدينة

بمقارنة الكلمات الدالة على الاستيطان والتي استخدمها ابن جبير في مذكراته بتلك التي وردت في القرن الرابع الهجري عند الجغرافيين من امثال المقدسي وابن حوقل نجد غنى في هذه الكلمات ، فبينما كانت كلمتا " القرية " و " المدينة " هما المستخدمتين حتى القرن الرابع الهجري للدلالة على مستويات الاستقرار نجد ابن جبير ـ في القرن السادس الهجري ـ يستخدم كلمات اخرى الى جانب هاتين الكلمتين مثل البلدة والمحلة . فالبلدة اصبحت تعني ـ الى جانب معناها اللغوي المعروف ـ مرتبة من الاستيطان تقع بين القرية والمدينة . وهي المرتبة التي اختار كل من المقدسي وابن حوقل في تسميتها ، فيقول عنها المقدسي " غير انه لما لم يكن لها قوة المدن في الاثنين ولا ضعف القرى في الخمسين وتردد امرها بين الرتبتين وجب ان تستظهر بذكرها ونبين مواضعها " [1] ، وفي مثل ذلك يقول ابن حوقل " مدينة صغيرة كالقرية تعرف بمسجد ابراهيم " [2] ، على حين نجد ابن جبير يسمي هذه المرتبة فيقول " بلدة بزاعة تصغر عن المدن وتكبر عن القرى " [3] ، وقد شاع هذا الاستخدام بعد ذلك ، فنجد كلا من ياقوت الحموي والقزويني في القرنين التاليين يستخدمان كلمتي بلدة وبليدة لمراكز الاستيطان غير الزراعية مثل محطات خدمة القوافل .

---

١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٠٦ ، ص ١٧٦ .

٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٥٨ .

٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار) القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ (سنة ١٩٥٥ م) ص ١٣٧ .

كذلك ظهر عند ابن جبير استخدام كلمة المحلة بمعنى القسم من المدينة حيث يقول عن بغداد " وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة "[1] وقد جاءت هذه الكلمة بدل كلمة الخطة التي كان يعنى بها القسم من المدينة حسب نزول القبائل ، واذا رجعنا الى كلمة المحلة وجدنا انها تعني لغويا " مائة بيت "[2] مما يدل على ان اقسام المدينة لم يعد ينظر لها نظرة قبلية ، وانما هي تقسم على اساس مجموعات من البيوت لا على اساس نزول القبائل ، مما ينبيء عن اختفاء النزعة القبلية في المدن ، واندماج العرب مع السكان الاصليين ، وان كان هذا الاستخدام لا يعني اختفاء كلمة الخطة نفسها فقد استمر استخدامها لفترة طويلة بعد ذلك .

أما عن اتساع مفهوم بعض كلمات العمران فيظهر في مدلول كلمة " المدينة " فقد كادت ان تختفي كلمتا المصر والقصبة ، وتضاءل استخدامها ، فكلمة مصر جاءت علما على الفسطاط وحدها حيث يقول " ثم منها (اي القاهرة) الى مصر المحروسة ... وكان نزولنا في مصر بفندق ابي النجاء في زقاق القناديل بغرسة من جامع عمرو بن العاص "[3] ، أما بقية الامصار والقصبات فيذكرها بكلمة مدينة مثل مدينة دمشق ، ومدينة مكة ، واختفت كلمة القصبة من كتابته ، ويبدو ان ما ذكره المقدسي من استخدام العامة لكلمة المدينة لجميع درجات المدن دون تمييز قد اصبح لغة العصر في القرن السادس الهجري .

هناك تغير اخر طرأ على مدلول كلمة المدينة فهي لم تعد تعني السكن الذي يحتوي على مهر ، وانما كل سكن يقوم بنفس الدور الذي تقوم به المدينة في دار الاسلام حتى وان كان خارجها ، فقد اطلق اللفظ على كل من بلارمة وعكا وصور ومسينة وكلها في يد المسيحيين ، فكأن الكلمة اصبحت ترتبط بمدى توفر خدمات معينة ، ويبدو ادراك ابن جبير لهذا المدلول من اضفائه صفة المدينة على عيذاب وصفة القرية على جدة مع ان كلا منهما ميناء على ساحل بحر واحد وتتشابهان في المظهر العام ، ولكن اختلاف الدور الذي تقوم به كل من عيذاب وجدة

---

١) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

٢) الفيروز ابادي : قاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧١هـ (١٩٥٢) ، ص ٣٧١ .

٣) ابن جبير : نفس المرجع ص ١٢ .

هو الذى جعله يحرر هذا الفارق .

٢) مكونات مدن المشرق العربى فى القرن السادس الهجرى

من خلال عرض ابن جبير للمدن التى توقف أو مر بها فى اقطار المشرق العربى - مصر والحجاز والعراق والشام - نتبين ان المؤسسات التى تمثل ركائز المدن الاسلامية والعربية بالذات ظلت موجودة مع ظهور مجموعة جديدة اختصت بها مدن المشرق العربى بالذات . واول هذه المكونات هو السور ، وهو معلم قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم ، ولكنه فى القرن السادس الهجرى اصبح جزءا هاما فى كثير من مدن المشرق العربى لتعرض العديد منها للهجمات سواء من الصليبيين أو من الامراء المتناحرين وكانت أسوار هذه المدن المعرضة للهجمات منيعة ضخمة من الحجارة ذات ابراج ولها بوابات ضخمة من الحديد كما فى حلب وحماة وحمص وعكا ، أما فى بقية المدن فقد تهدم بعضها واختفى البعض الاخر وهى فى غالبيتها من الطين كما فى أسوار معظم مدن مصر والعراق ، وعلى كل حال فان الاسوار فى هذا القرن لم تعد تلعب دور الفصل بين المدينة والريف فقد زحفت غالبية المدن خارج اسوارها وتجاوزتها بحيث اصبح للمدينة الرئيسية والضواحى ، كما فى الموصل وبغداد ودمشق وقوص وغيرها ، وكانت هذه الارباض تحتوى على المساجد والجوامع والخانات والاسواق والمدارس والرباطات والقصور وغيرها .

اما الجامع فقد ظل من مكونات المدينة العربية ولكنه لم يعد جامعا وحيدا تتميز به المدينة وانما زاد عدد الجوامع مع اتساع المدن وزيادة عدد السكان ، فقامت فى اجزاء المدينة البعيدة وحتى خارجها ، وجدير بالذكر أن الجوامع فى هذا القرن لم تعد قاصرة على المدن فظهرت فى القرى الهامة مثل المنشأة (بلبيس) فى مصر وصرصر فى العراق والدنيرب والعزة قرب دمشق ، كذلك توزعت المساجد فى ارجاء المدينة ، وزادت اعدادها حتى ان ابن جبير قد أوصلها الى اعداد كبيرة كما فى الاسكندرية وبغداد ، وقد اصبحت المدارس من معالم مدن المشرق العربى فى هذا القرن ويمكن ملاحظة ذلك من مقارنة وصف المدن عند المقدسى فى القرن الرابع الهجرى وعند ابن جبير فى القرن السادس الهجرى وقد ارتبط بعض هذه المدارس بالجوامع والمساجد وقام البعض الاخر منفردا .

ارتبطت الحوانيت كذلك بالجامع الرئيسى (شكل ١) وقد اتخذت كما يتضح

شكل ١-٢. المكونات الاساسية لمدينة المشرق العربي كما تظهر في حلب القديمة عند :
P. Beaumont (1976), The Middle East.

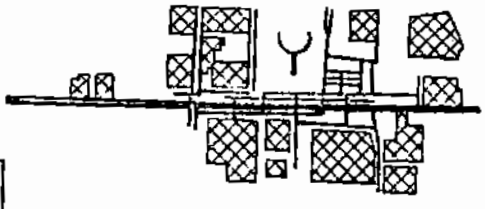

شكل ١-٣. تفصيل لسوق المركزي عند
K. Deffmann (1969), Damaskus.

من وصف ابن جبير لها في عديد من المدن اشكالا متعددة فتحيط بدهاليز الجامع وتمتد الى ما بعدها كما في سوق دمشق حيث يقول " وعلى الباب المغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه " ... وعن دهليز ثان يقول " ... وفيه حوانيت للخرزيين " [1]، بل ان السوق قد تصل الى حرم الجامع كما في سوق المسجد الحرام حيث يقول " وفي ايام الموسم كلها عاد المسجد الحرام - نزهة الله وشرفه - سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى العقيق ومن البر الى الدر الى غير ذلك من الحلي " وقد تتسع مساحة هذه الاسواق وتمتد كما في سوق دمشق التي كانت تمتد من باب شرقي حتى باب الجابية في الغرب ، وهي تتميز بتخصص كل جزء منها بحرفة من الحرف او تجارة معينة فسوق حلب مثلا " .... متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية " ، كذلك تميزت معظم الاسواق بتسقيفها بالخشب ،كما كانت القيساريات أحد معالمها البارزة وكان بعضها يرتفع عدة طبقا وتحتل الحوانيت الطابق الارضي والمخازن واماكن المبيت الادوار الاخرى .

كذلك اقترب من الجامع بعض الفنادق ، كما لاحظنا في القسطاط ومثلها في جامع دمشق فيقول عن أحد الدهاليز فيه " ... وعليها شوارع اخر مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز " [2] هذا وان ظهرت مجموعة اخرى منها قرب البوابات الهامة وخارجها مرتبطة بمحطات المسافرين ، كذلك حملت مدن المشرق العربي بالحمامات وكانت تتناسب المساجد في كثرة عددها ، ومن الملاحظات الطريفة ان حمامات بغداد كانت تدهن بالقار الذي يتوفر قريبا منها بكثرة طبيعية في بعض العيون المنبثقة على سطح الارض ، كذلك من ابرز مكونات مدن الشرق العربي البارستانات والزوايا والربطات والخوانق .

اما القاهرة فرغم تواتر ذكرها الا انها كانت اكثر وجودا في الشام و شمال العراق ، اما في مصر فلم يكن هناك الا قصبة صلاح الدين في القاهرة ، وقلعة بعلبك متأثرا بالقلاع في موطنه الاول ، كذلك لا يأتي ذكرها في الجزيرة العربية ، وبها حصون متناثرة متعددة في مواقع متفرقة من طريق الحج ، وجدير بالذكر

---

(1) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، ص ٢٥٧ .

(2) ابن جبير : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ص ٣١٢ .

انه بينما كانت الحصون للدفاع في المناطق الريفية في الشام ، فان دورها في المناطق التي تحت يد الصليبيين كان مختلفا عن دور الحصون العربية ومماثلا لدور الحصون الاوروبية في العصور الوسطى ، أي للهيمنة والسيطرة ، فكان كل حصن يسيطر على مجموعة من القرى تقع في دائرة نفوذه .

أما الدور التي يمكنها الاهالي فيفهم من كلام ابن جبير انها كانت من الآجر في العراق ، ومن الطين والقصب في مدن الشام ومصر ، وكانت هذه البيوت ترتفع الى عدة طوابق في دمشق والاسكندرية والفسطاط . وهو ما يؤيد وصف كل من ابن حوقل في القرن الرابع الهجري وناصر خسرو في القرن الخامس الهجري للفسطاط .[1]

٣) حياة المدينة

لا يهتم ابن جبير اهتماما كبيرا بسكان المدن ولا يذكرهم الا في مواضع متفرقة ، واكثر من يهتم بذكرهم من سكان المدن بخاصة جماعات المغاربة ، ونخلص من كلامه ان مدن المشرق العربي كانت تعج باعداد مختلفة من البشر وخاصة مراكز العلم المشهورة او الواقعة منها على طرق الانتقال البرية والبحرية ، فمثلا يصف قوص " كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج ، والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة "[2] ومن ثم فقد انتشرت الفنادق والخانات في هذه المدن ، كما كانت هناك جماعات اخرى تقيم لعنوات طويلة او اقامة دائمة في بعض هذه المدن لطلب العلم والتعبد ولهؤلاء كثرت اماكن الايواء المجانية في المدارس والمساجد والزوايا والرباطات ، بل اقيمت لهم الحمامات والمارستانات كما كان الحال في الاسكندرية .

وكانت مدن المشرق تقدم الخدمات التعليمية والصحية ـ لمكانها ـ من خلال مؤسساتها التي سبق الاشارة اليها كالمساجد والمدارس والمارستانات والحمامات وكانت توقف عليها الاوقاف من اراض او عقارات ، ونستشف من حديث ابن جبير ان المارستانات لم تكن معروفة في المغرب حتى ذلك الحين حيث يقول :

---

١) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ناصر خسرو : سفرنامة (نقلها للعربية يحيى الخشاب) ، بيروت ، ص ٩٠ ، ١٠١ .

٢) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٣٧ .

" وسألنا احد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات " (١)

كذلك تعرض ابن جبير فى حديثه عن كل مدينة لطريقة حصولها على مياه الشرب وفيها نتبين أن حتمية وجود المركز السكنى قريبا من الماء لم تتحقق حتى فى هذه العصور ، وفى تلك المناطق الجافة وشبه الجافة ، فرغم أن الكثير من المدن كان يقع قريبا من مجارى مائية او عيون ماء ، فقد كانت هناك مدن أخرى تحصل على المياه من الابار المحفورة مثل منبج ومكة ، والبعض الاخر يتقر خزانات فى الصخر لتمتلئ بمياه الامطار كما فى جدة ، كما كانت هناك قلة من المدن تحدث فانون ارتباط المدينة بمورد الماء فكانت تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال فى حمص وعيذاب وحران (شكل ٢) .

٤) احوال مدن المشرق العربى فى القرن السادس الهجرى

نخلص من مذكرات ابن جبير ان مدن المشرق العربى قد تفاوتت احوالها واوضاعها تبعا للاقاليم الواقعة فيها ، فبالنسبة لمصر تظهر الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى مدينة ذات حركة ونشاط ، وتبدو وقد استعادت جزءا من حيويتها القديمة التى فقدتها بعد الفتح العربى ، فكانت اسواقها تتعشة لوفود السفن اليها من البحر ، ولعل ابلغ عبارة وصفها بها ابن جبير تبين نشاطها كميناء قوله " .. ومن الغريب ايضا فى احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع احوالهم " (٢) وهذا هو حال كثير من الموانئ حتى الوقت الحاضر ، حيث ينشط السكان وتفتح المتاجر بمجرد وصول السفن ، كما كانت مقصدا للمغاربة من البر ، وقد نوه ابن جبير بحماماتها الكثيرة ووجود مارستان بها ويؤيده فى هذا القول الوزير الايوبى المعاصر له الاسعد بن مماتى حيث يقول " الشوارع المحروسة اسكندرية دمياط تنيس رشيد عيذاب والاسكندرية اعظمها قدرا وافخمها امرا واكثرها ارتفاعا " (٣) ، اما الفسطاط — التى كانت قد سبقت الاسكندرية مركزها فى القرن الاول الهجرى — فقد كانت تعانى من

---

١) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٢٤٦ .

٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٢ .

٣) الاسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٦ .

منافسة القاهرة من ناحية ومن اثار الخراب الذى احدثه بها الحريق فى سنة ٥٦٤ هـ من ناحية اخرى ، ورغم ان التعمير كان يجرى بها الا ان ابن جبير يقول عنها " وهى مدينة كبيرة والاثار الندية حولها وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف " ، ورغم ان عدد مدن مصر قد ارتفع منذ القرن الرابع الهجرى فان الدلتا قد خلت من المدن الهامة وانتشرت القرى وسط اراضيها الزراعية بعد ان اندثرت مدنها القديمة ، فى حين انتعشت مدن الصعيد مثل اسيوط واخميم وقنا وقفط وقوص لانتقال طريق التجارة والحج الى الجنوب ، وقد تبع ذلك نمو ميناء عيذاب مرتبطا بهذا النشاط المؤقت وكان لهذا النمو المصلحى فى منطقة تفتقد الظهير الملائم أثره فى اختفاء هذا الميناء فيما بعد .

أما بالنسبة للحجاز ، فيبدو من وصف احمد بن جبير ان جدة كانت تلافى فترة انتعاش بعد نشاطها فى القرن الخامس الهجرى ، فبينما يصفها ناصر خسرو بانها " مدينة كبيرة لها سور حصين " (١) نجد ابن جبير يقول عنها انها قرية بها اثار سور قديم ، ويبدو ان فترة تدهورها لم تستمر حيث يبدو نشاطها مرة أخرى فى وصف التجيبى فى القرن السابع الهجرى . " وبها الآن اقلاع وحط يصادر منها للسين وسواكن وعيذاب والقلزم وغير ذلك " (٢) . اما مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد كانت عناية الخلفاء والامراء بهما ظاهرة من حيث تحويل السيول وتجديد الاسوار وتوفير المياه والعناية بالمسجد الحرام ومسجد الرسول وغيرهما من المساجد كما يذكر ابن جبير فى مناقب جمال الدين ، ولكن كان من الواضح أن المدينتين قد اصبحتا تعتمدان على التجارة خلال موسم الحج بالدرجة الاولى .

اما مدن العراق فيبدو انحدارها ولحق الخراب باجزاء منها ويظهر ذلك فى كلام ابن جبير عن الكوفة وبغداد وسر من رأى ومنبج وقنسرين ورأس العين

---

١) ناصر خسرو : سفرنامة (ترجمة يحيى الخشاب) ، بيروت ، (بدون سنة طبع) ، ص ١٢٠ .

٢) القاسم بن يوسف التجيبى : مستفاد الرحلة والاغتراب (تحقيق عن الخنيطى منصور) تونس ، سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ٢١٩ .

ودنيصر وحران وغيرها ، ولا شك ان افول الدولة العباسية واستيلاء الامراء على مقدراتها حتى أن ابن جبير يصفهم بانهم " سلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس" (١) ثم فساد الامن في البلاد حيث كانت قبيلة خفاجة تعيث في المنطقة مابين الكوفة وشمال بغداد فسادا ، بينما يسيطر الاكراد على المنطقة مابين الموصل ودنيصر ، قد أدى الى تدهور المدن وانحدار بعضها الى مستوى القرى فيما بعد (شكل ٢) .

اما في الشام فان دمشق تبدو من وصف ابن جبير مركزا زراعيا وتجاريا وصناعيا هاما ، وكان لموقعها على طريق التجارة بين الشرق وموانى البحر المتوسط اثر في استمرار انتعاشها ، اما حلب وحماة وحمص فقد كان مرسها من حصون الصليبيين سببا في منعتها وحصانتها ، وقد برزت عكا في الشمال التجارى فقد كان يتجه اليها التجار الوافدين من اليمن الى الشام وفي ذلك يقول ابن جبير انه سافر في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة " (٢) كما يتضح من اتجاهه الى ميناء صور منافسة هذا الميناء لعكا ، ومن ذلك يتضح استخدام المسلمين لهذين الميناءين رغم هيمنة الصليبيين عليهما .

٥) الريف في المشرق العربي

ظلت القرى كما كانت من قبل تلحق اداريا بالمدن ، فيقال قرى بغداد ، وقرى الموصل ، وقرى حلب ، وكان العمران الريفي مزدهرا في كل من مصر والعراق والشام واصلحت الاراضي الزراعية وتوالت القرى وراء بعضها . وحديث ابن جبير عن القرى والزراعة ليس في غنى حديثه عن المدن فما يذكره ليس بالكثير ، ففي مصر ينوه باتساع الاراضي المزروعة وتواصلها ، كما يتحدث بايجاز عن بعض المحاصيل كالقمح ويذكر مقياس الروضة وأوان استحقاق الخراج ، وفي الحجاز يتحدث عن استعانة المعمارية بالزراعة في منطقة الطائف ولا يفوته أن ينوه بدورهم في ازدهار الزراعة فيها . ولعل أهم ما يذكره عن الزراعة هو حديثه عن النظام القائم

---

١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٨ .

٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢٢٨

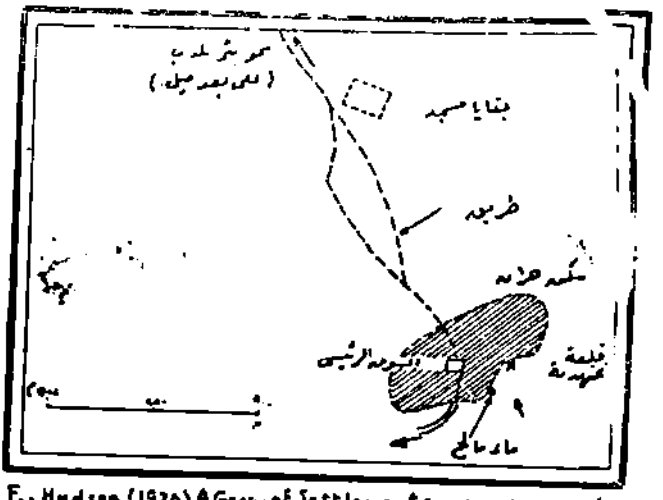

F., Hudson (1976) A Geog. of Settlements شكل ٢. حالة. نقلا عن

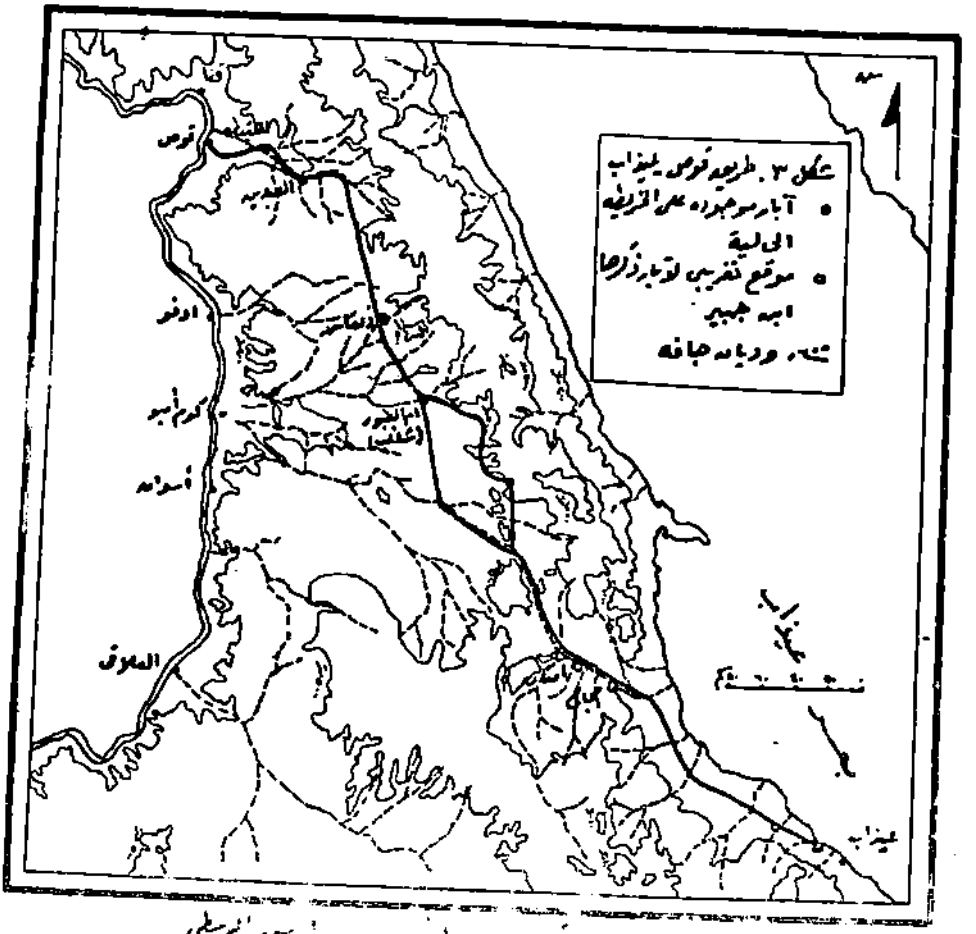

في المناطق المشتركة بين حدود المسلمين والصليبيين حيث يشترك كلا الطرفين في الزراعة ويقتسمان المحصول بينهما ، كما يقومان بالرعي في منطقة واحدة بالاتفاق بين الطرفين ، فيقول في الحديث عن بانياس " ولها محرث واسع في بطحاء متصلة بشرف عليها حصن للافرنج يسمى عونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج والمسلمين ولهم في ذلك حد يعرف بحد القاسمة فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهما فيها " (١) وقد كان يقدر على الاخرى اسوارها كما كان ليعض القرى حصونا تحميها ، أما في منطقة الصليبيين فقد كان الحصن يستخدم للسيطرة على مجموعة القرى القريبة منه . وكانت القرى الكبيرة لا تخلو من مسجد ، ومدرسة ، وحمام او حمامين ، كما كان هناك خان للمسافرين في قرى الشام التي تقع على طرق القوافل ، وكانت هناك ايام معلومة للسوق في كل قرية ليتسنى لها خدمة المنطقة المحيطة بها ، حيث يؤمها الفلاحون ، كما في بزاعة ونصيبين ودنيصر والجيزة وعلنطا وغيرها ، وهو يقول عن سوق الجيزة مثلا " .. لها كل يوم احد سوق من الاسواق العظيمة يجتمع اليها " (٢) .

٦) طرق الحج والتجارة

ان احد الاغراض الرئيسية من تدوين مذكرات ابن جبير هو اطلاع مواطنيه على طرق الحج الى مكة المكرمة ، ووصف احوال هذه الطرق ، وما يقابله المسافر فيها ، ولذا حرص ابن جبير على تدوين طريق حجه وعودته ، بل انه ازجى النصح لمواطنيه اى الطرق يتبعون في حجهم بعد أن مر بتجارب أغضته ، ومن وصفه لطريق حجه تتضح الحقائق الاتية :

١ـ سيطرة العنف مرة اخرى على بعض اجزاء من الطريق المألوف الذى يربط القاهرة بشمال الحجاز عن طريق شبه جزيرة سيناء ، مما أدى الى تحول قوافل الحج والتجارة الى الصعيد حتى قوص ثم الى عيذاب على الساحل الغربي للبحر الاحمر وميناء الى جدة على الساحل الاخر المقابل .

---

١) ابن جبير : الرحلة ، ص

١) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٢٤ .

٢ـ فقدان المسلمين لسيطرتهم على البحر المتوسط ، بينما عادت أوربا الى مد سلطانها عليه ، ففي الذهاب والاياب كانت السفن المستخدمة تابعة لجنوة ، كما كانت السفن العائدة بعضها تابع للدولة البيزنطية ، ولم يكن أي منها تابعا للمسلمين ، كذلك كان ازدحام موانئ صقلية وعكا وصور واضحا ، ولعل ضيق المسلمين من ذلك يظهر من اختفاء تسميته ببحر الروم ، ويكتفي ابن جبير بان يذكره بالبحر بدون تعيين .

٣ـ محاولة الصليبيين مد نفوذهم في البحر الاحمر وقيامهم باعمال القرصنة فيه وتصدي صلاح الدين لمغامرتهم .

٤ـ فقدت القلزم اهميتها كميناء أولى على البحر الاحمر خلال هذا القرن وتحولت التجارة وتحول المسافرون الى عيذاب ، مما ادى الى تقلص تسمية " بحر القلزم " واستخدام ابن جبير عدة اسماء كبديلة لهذا البحر مثل بحر فرعون ، وبحر عيذاب ، وبحر جدة .

٥ـ في نفس الوقت لم تستطع عيذاب أن تنمو وتكبر بعد ان حلت محل القلزم لفقدها الظهير الحي الذي يساندها ، وتطرف موقعها بعيدا عن العمران .

٦ـ كانت الطريق بين قوص وعيذاب قاصرة على الابار وحدها ولا عمارة فيها على حد قول ابن جبير ، وقد حرص ابن جبير على تعيين مواضع الابار في هذه الطريق وحالة مياهها ونوه بذكر الطريق الاخرى التي تقع الى الشمال منها وتلتقي معها عند بعض الابار ويعتبر وصفه لهذه الطريق وتعيين الابار التي تمر بها القوافل أدق وصف معروف لها ، (شكل ٣) كما ظهر هذا الحرص كذلك في وصفه للطريق بعد الخروج من مكة متجها الى العراق ، وكانت الاخيرة معمورة في مواضع كثير من الابار ، كما قامت الحصون عند كثير منها ، كذلك أبنية المحافظة على ماء الامطار ، وعند الطارق بين طريقين تفعان في بيئة متشابهة يجيء من كثرة القبائل الرعوية في شبه الجزيرة العربية ، والاعتام بدرب الحاج من قبل كثير من الحكام في بغداد ، ولا شك ان لوجود بيئة غنية في وادي النيل أثر في انصحلال البشاريين الرعوي و مساؤل معاصر الحياة على الطريق الصحراوي في مصر .

٧ـ كانت طرق القوافل في كل من الحجاز والعراق والشام غير امنة لوجود قبائل تقطع الطرق من ناحية وهجمات الاكراد من ناحية اخرى ، فضلا عن اللصوص من الفرنجة والعرب على السواء بعكس الطرق في مصر التي كانت تتمتع بالامن .

٨ـ كانت طرق القوافل بين العراق والشام حتى ساحل الليفانت مفتوحة لقوافل المسلمين والصليبيين حتى في زمن قيام المعارك لاهمية التجارة العابرة لاقتصاد كل منهما .

خاتمة :

ان العمران احد الموضوعات الجغرافية ، التي لا تستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة ، الا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها وقد اعانت مذكرات احمد بن جبير هذه الدراسة في اتجاهين ، الاول هو الكشف عن تطور ومدلولات السكن ، بما ينبيء عن استقرار الحضرية عند العرب ، وتطويعهم اللغة العربية بما يلائم واقعهم الجديد ، وهو ما يحاوله الجغرافيون في العصر الحاضر ، من البحث عن كلمات للدلالة عن واقع تغير ومظاهر جديدة ومستويات للعمران لم تعرف من قبل اما الاتجاه الثاني ، فهو تقديم تلك المادة الاولية الوافرة للجغرافية الاجتماعية لمنطقة المشرق العربي بعد تأصل الحضارة العربية فيه ، مما يساعد بالتالي على تفسير بعض ملامح من الشخصية الجغرافية الخاصة للمنطقة ، التي وان تمايزت اقاليمها بعضها عن البعض الاخر منذ القدم ، الا أننا لا نستطيع ان ننكر ان دخول العرب اليها وانتشار الاسلام واللغة العربية فيها قد أديا الى وجود مظاهر تجمع بينها وتفرقها عن المناطق الاخرى .

د . نوال محمد عبدالله اسماعيل

المصادر والمراجع العربية :

١ـ ابن جبير (ابو الحسين محمد ابن احمد الكناني): رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار) ،القاهرة ، سنة ١٩٥٥ م .

٢ـ ابن حوقل (ابو القاسم النصيبي) : صورة الارض ،بيروت ، (بدون سنة طبع) .

٣ـ ابو شامه (شهاب الدين عبدالرحمن المقدسي) : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية) (تحقيق محمد حلمي محمد احمد) جـ١ قسم ثاني ،القاهرة ،سنة ١٩٦٢ م .

٤ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح الدين هاشم) ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ م .

٥ـ الاسعد بن مماتي : قوانين الدواوين (جمعه وحققه عزيز سوريال عطيه) ، القاهرة ، سنة ١٩٤٣ م .

٦ـ التجيبي (القاسم بن يوسف السبتي) : مستفاد الرحلة والاغتراب (تحقيق عبدالحفيظ منصور) ، تونس ، سنة ١٩٧٥ م .

٧ـ الفيروزابادي (مجدالدين بن يعقوب) : قاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٥٢ .

٨ـ المقدسي (شمس الدين ابو عبدالله) : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (طبعة دي خويه) ،الطبعة الثانية ، سنة ١٩٠٦ م .

٩ـ النمري (احمد بن محمد التلمساني) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (تحقيق احسان عباس) ،بيروت ،سنة ١٩٦٨م .

١٠ـ ناصر خسرو : سفرنامه ـ رحلة ناصر خسرو (ترجمة يحيى الخشاب) بيروت ، (بدون سنة طبع) .

١١ـ نوال محمد عبدالله ، المدينة العربية في العصور الوسطى : الكتاب السنوي الثالث كلية التربية للبنات ، الرياض ، سنة ١٩٧٧ م .

١٢ـ هاري عازار : اطلس التاريخ الاسلامي (ترجمة ابراهيم زكي خورشيد) ، القاهرة ، (بدون سنة طبع) .

١٣ـ هيام عبدالرحمن سليم : تجارة مصر الخارجية في العصور الوسطى (رسالة دكتوراة غير منشورة) ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧ م .

١٤ـ ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله) : معجم البلدان ، جـ ١ ، بيروت ، سنة ١٩٥٧م .